التنوع من منظور إسلامي

نحو دور للوسيط الحضاري

سعادة الدكتور غيث بن مبارك الكوراري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية – دولة قطر

كلمة أنجزت سنة 2012 بمناسبة زيارة مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية - بريطانيا

التنوع من منظور إسلامي

نحو دور للوسيط الحضاري

الدكتور غيث مبارك الكواري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر

2012

أيها الحضور الكرام

حين نُنْعِمُ النَّظَرَ في الحضاراتِ التي شَهِدَتْهَا الإنسانيةُ وتعاقبت على رِيَادَتِهَا في دوراتٍ حضاريةٍ متتاليةٍ ومُتَرَابِطَةٍ ، نرى أنها تبَايَنَتْ في مسألة العلاقة بالآخر قَبُولاً ورَفْضًا، واختلفت في درجة الانفتاح على الأفكار تفسيرا وتَطويعًا، وتفاوتت في تدبير اختلاف الهويات حاضنة ومستضافة، وتمايزت في أساليب حوكمة التنوع وهامش الإقرار بالحق في الاختلاف الفكري.

ولعل مما ينبغي التنبيه إليه، أن الحضارات بَنَتْ نَفسها وِفْقَ منطقِ المُغَايَرَةِ وإنْ كانت تَوَافَقَتْ على تَعَاوُرِ الأفكار الحية وأنماط التدبير. إن كل مجموعةٍ حضاريةٍ وَعَتْ نفسها برسمها لحدودٍ هويةٍ أدركت فيها آلياتِ تفكيرِها الخاصة، ورسمت شروط انسجامها بالمُقايَسة مع غيرها.

إن الموقفَ منَ التنوع مقياسٌ حاسمٌ تَمَّ بِمُوجِبِهِ وَسْمُ حضارةٍ مَا بأَنَّهَا حاضنةٌ أو نَعْتِهَا بأنها لاَفِظَةٌ، اعتبارًا لما يُحَصَّلُ من الإقرارِ بالتنوعِ من تشاركٍ وتَوَافُقٍ، وما يَتَأَسَّسُ عن رَفْضِ التنوعِ من انغلاقٍ وتَبَاعُدٍ. وفي حينِ يُؤَدِّي انغلاقُ الحضارةِ إلى مَحْدُودِيَةِ أَثَرِهَا فَتُرْغَمَ عَلَى الزَّوَالِ أَوِ الْكُمُونِ، تَتَلَازَمُ مع التشارك والقَوْلِ بالتنوعِ أَفْكَارٌ حَيَّةٌ تُفْضِي إلى اعْتِرَافِ المجموعةِ الحضاريةِ الحاضنَةِ بمسؤوليتِهَا في حِمَايَةِ حقوقِ الأقلياتِ الثقافيةِ والدينية والإثنية المتساكنة مَعَهَا، وإقرارِهَا بالتَّكَامُلِ مَعَهَا لِتَحْصِيلِ الْـمَحَاسِنِ وَدَفْعِ الْـمَضَارِّ.

أيها السادة

إنَّ الحضارةَ الإسلاميةَ من هذا النوعِ الثاني الذِي ذَكَرْنَا؛ فقدِ انْفَتَحَتْ على أعراقٍ مختلفةٍ وأديانٍ مُتباينةٍ، وثقافاتٍ عديدةٍ ولغات متنوعةٍ، وكان لكل تلك الأعراقِ والأديانِ والثقافاتِ واللغاتِ، كلِمَتُهَا في ذلك الصَّرْحِ الحضاريِّ الذي اِمْتَدَّ من طشقندَ إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وأَسْهَمَ في تشييده العربيُّ ، والروميُّ والفارسيُّ والقبطيُّ والأمازيغيُّ والماغوليُّ والكرديُّ، والتركيُّ، والإيبيريُّ، والعبريُّ والإفريقيُّ وغيرهم كثير. كان من أعلام الحضارة الإسلامية علماءُ مسلمونَ وعلماءُ مسيحيون وعلماءُ يهودٌ ومجوسٍ، أُدَبَاءُ ومبدعونَ، أطباءُ وعلماءُ في الفَلَكِ والفِلاَحَةِ، أَعْلاَمٌ مِنْ كُلِّ الملل والنحل،الكُلُّ احْتُضِنَ في ظل حضارةٍ إسلاميةٍ مُؤسَّسَةٍ على تعارفِ وتشاركِ مُكَوِّنَاتها في المصالحِ والحقوقِ، اِسْتَقْطَبَتْ

العديدَ مِنَ الأُطروحاتِ العلميةِ التي شهدتْها الحضاراتُ البشريةُ من قَبْلُ، فَشَرَحَتْ وَتَرْجَمَتْ وَبَنَتْ عُلُومًا جديدةً.

والجديرُ بالملاحظةِ، أن تَعَارُفِيَةَ الحضارةِ الإسلاميةِ مَكَّنَتِ المجموعاتُ الثقافيةُ والدينيةُ التي اِنْضَوَتْ تحت لِوائِها من الاستمرارِ في إنتاجِ معرفةٍ في إطارها الهُوِّيِّ الخاصِّ، بينما تَنَفَّسَتْ في سياقٍ ثقافيٍّ عربيٍّ إسلاميٍّ شاملٍ. وأَوضحُ مثال على ذلك، ما تَحقَّقَ في الأندلس في العصر الوسيط، حيثُ رَاكَمَ اليهودُ والإيبيريونَ الـمُسْتَعْرَبُونَ رصيدًا من المعارفِ أعتُبرَ مِثَالاً لما يُمْكِنُ أنْ تَمْنَحُهُ الحضارةُ التَّعَارُفِيَةُ مِنْ حُريةٍ في الفكرِ و الإبداعِ، لَقَدْ أَنْتَجَ هؤلاءِ معرفةً في إِطَارِهِمُ الهُوِّيِّ والدينيِّ والثقافيِّ باللغةِ العربيةِ مُسْتَثْمِرِينَ لِآلِيَاتِهَا المنطقيةِ والتَّفْكيريَةِ، وبِنْيَتِهَا التَّعْبِيرِيَةِ في إنتاجِ معرفةٍ خاصَّةٍ بهمْ بِالْمُوَازَنَةِ. هكذا كَتَبَ مُوسى بن ميمون مثلا "دَلاَلَةَ الحائرينَ" و "رسالةَ في البعثِ" باللغةِ العربيةِ مُسْتَثْمِرًا نَظَرِيَّاتِ المتكلمينَ المسلمينَ في قِرَاءَتِهِ للتَّوْراةِ، وَتَوَافَقَ مع ابنَ رشدٍ في تَحْدِيدِ ما بين الشريعةِ والحكمةِ من اتصالٍ، وكتب غيرُهُ باللغةِ العربية في سِيَاقَاتِهِمُ الخَاصَّةُ بِدُونِ أَدْنَى حَرَجٍ، كَمَا كَتَبُوا بِلُغَاتِهِمُ الخاصَّةُ بِنَفَسٍ عربيٍّ ومُوَجِّهَاتٍ فِكْرِيَةٍ عربيةٍ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ كُلُّ عِلْمٍ وَفَنٍّ، فهذا سعيد بن البطريق (توفي سنة ٣٢٩هـ) يَكْتُبُ "نَظْمَ الجَوَاهِرِ" بِنَفْسِ تَفَاصِيلِ الكِتَابَةِ عندَ المؤرخينَ المسلمينَ قَبْلَهُ، وَذَاكَ جُورْجْيُوسْ ابنُ العَمِيدِ أَبُو إِلْيَاسَ بْنَ أَبِي المَكَارِمِ بْنَ أَبِي الطَّيِّبِ المعروفِ بالمكينِ (توفي سنة ٦٧٢هـ)

يَكْتُبُ بنفس الأسلوب في التأريخ كتاب "تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابيكية" الذي عُنِيَ بنشر المستشرق الهولندي طوماس إربينيوس بِلَيْدِنْ سَنَةَ ١٦٢٥م.

وَلَنَا هُنَا أَنْ نُشِيرَ إلى أَنَّ الدَّعَاوَى الْـمُعَارِضَةَ لتَقليدِ العلومِ العربيةِ وسِيَاقِ اَلْـمَعَارِفِ الإسلاميةِ دَاخِلَ تلكَ الدَّوَائِرِ الثقافيةِ والدينيةِ واللغويةِ الْـمُتَعَايِشَةِ في الأنموذجِ الحضاريِّ الإسلاميِّ ظَلَّتْ مَحْصُورَةً؛ ولم يكن بِمَلْكِ فْرَيْلِيٍّ مثلَ أَلْفَارُو القُرطبِيِّ الذي عَاشَ حَوَالَيْ سنة ٩١٠ميلادية إلاَّ أَنْ يُطْلِقَ صَرْخَتَهُ الـمُحْتَقِنَةَ عاَكِسًا وَاقِعًا لَمْ يَسْتَسِغْهُ في رِسَالَةٍ دَالَّةٍ، يَقُولُ فِيهَا :

"يَطْرَبُ إِخْوَانِي المسيحيونَ بأشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها ، بل للحصول على أسلوب عربي فصيح، فأين تجد اليوم من يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وا أسفاه ! إن شباب المسيحيين وهم البارزون في المواهب ، ليسوا على علم بأي أدب ولا أية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات عالية، وإنهم يترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب حتى أنك تراهم من الناحية الأخرى يزدرون الكتب المسيحية ويعلنون إنها غير جديرة بالتفاتهم ، وا لوعتاه ! لقد نسي المسيحيون لغتهم ، ولا يكاد يوجد

منهم واحد في الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق له بلاتينية صحيحة! بينما إذا تعلق الأمر بالكتابة بالعربية، كثير منهم يستطيع أن يعبر عن نفسه في تلك اللغة بفصاحة لا تجارى ، حتى أنهم قد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمه شعر العرب أنفسهم". (عن ليفي بروفنصال ـ الحضارة العربية في إسبانيا)

إن رسالة ألفارو تعكس واقعًا نَتَجَ عن تَعَارُفِيَةِ الحضارةِ الإسلاميةِ، وهامشِ البِنَاءِ الذي أَتَاحَتْهُ اللغةُ العربيةُ ـ الْحَمَّالَةُ لِثَقَافَةِ التَّنَوُّعِ آنِئِذٍ ـ للدَّوَائِرِ الثقافيةِ الْـمُتَسَاكِنَةِ معَ المسلمينَ في الدولةِ الإسلاميةِ.

أيها السادة

لقد سبق لي في بحث سابق بعنوان " نحوَ حَوْكَمَةٍ للهوية ، الأنموذجُ الإسلاميُّ"[1]، إن التنوع يحمل في المنظورِ الإسْلاَمِيّ معنًى إيجابِيًّا، وقد عُبِّرَ عنه في أفقينِ اثنينِ:

الأُفُقُ الأَوَّلُ، التنوعُ الطَّبيعِيُّ، المعبر عنه في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَات

[1] - http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=170275
ورقة مقدمة إلى ورشة العمل التي أقامتها كلية الدراسات الإسلامية بمؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع بعنوان : (الحوكمة والهوية والتنوع - رؤى نظرية وخبرات دولية وإسلامية) ، الدوحة، ١٤/١٥ ديسمبر ٢٠١٠م

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ (سورة الروم ،الآيات ٢١ــ٢٢)

فعلاوة على وحدةِ الأصلِ البشريِّ تُشيرُ هاتانِ الآيتانِ الكريمتانِ إلى أن **التنوعَ طبِيعِيٌّ** وهو مُحَصَّلٌ من الكَثْرةِ والانْتِشَارِ، لكن هذه الكثرةَ ليست تَنْزعُ نحو الافتراق والتَّبَاعد، إنها دافع إلى التفكر والتدبر، وهي مَعْبَرٌ إلى مَعْرِفَةِ المشتَرَكِ.

وقد تَقَرَّرَ هذا المعنى عند سلفِ الأمةِ، فَاعْتُبِرَ اختلافُ الألسنِ تَنَوُّعًا إيجابِيًّا يَدْفَعُ باللُّزُومِ إلى التَّعَارُفِ، فَتُدْرَكُ مَقَاصِدُ تِلْكَ الألسنِ بتَعَلُّمِها لِتُثْقَفَ مَعَانِيهَا، وفي ذَلِكَ تَأْسِيسًا لِلِقَاءِ بِقَصْدِ تَشَارُكِ الأَفْكَارِ.

ونفس المعنى الإيجابي من التنوع يُفْهَمُ من الآية الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات : ١٣)، فالتنوع المؤسس على كثرة النوع، هو عامل تأسيس للمجتمع المتعارف، إذ أن التعدد المعرفي والفكري والعلمي والإثني، يقود بالضرورة إلى التفكير في حدود للتوافق لتحقيق التعارف ومآلاته المُجْمَلَةِ في "التعايش" وقبول "التشارك".

أما **الأفق الثاني**، فهو **التنوع المعنوي**، وهو الذي يَنْشَأُ عن الاختلافِ بين الذَّوَاتِ المُفَكِّرَةِ نتيجةً لاختلافِ أساليبِهَا في الاستدلالِ واختلافِ آلياتِ التَّفْكيرِ عندَها ورُؤْيَتِهَا للْعَالَمِ. قال الله تعالى في سورة يونس الآية ١٩ : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً

وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾، وقال تعالى في سورة هود الآيتين ١١٨ ـ١١٩: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

والاختلاف المذكور في هذه الآيات الكريمة إشارةٌ إلى **تنوع معنوي** تَتَحَمَّلُ فيه الذَّوَاتُ العاقِلَةُ تَبِعَاتِ اختياراتِهَا فَتَتَوَجَّهُ فِئَاتٌ مِنْهَا إلى التَّآلُفِ وتَتَوَافَقُ على ما يَحْفَظُ الدِّينَ والعقل والنفس والمال للكَائِنِ البَشَري، وتَخْتَارُ فئاتٌ أُخْرى طَرَائِقَ أُخرى في النَّظر تَجْعَلُهَا مُنَاقِضَةً للأُولَى فَتَتَعَصَّبُ وتَتَطَرَّفُ، وتَسْطُو وَتُدَمِّرُ، وتُضَيِّعُ مُهِمَّةَ الاسْتِخْلاَفِ فَتُهْلِكُ النَّوْعَ البَشَرِيَّ وتُلْحِقُ الضَّرَرَ بكوكب الأرض..

وفي الإسلام، يُمْكِنُ رفعُ الاختلافِ الدَّالِّ على التَّنَوُّعِ المعنَوِيِّ والمُعَبَّرِ عنه في الآيات التي أوردنا أعلاه، بِتَطْوِيرِ خُطَطٍ لِتَوْسِيعِ دَائِرَةِ الخيرِ وما يَرْتَبِطُ بها مِنْ مَحَاسِنَ ومَآلاتٍ، وتَضْيِيقِ دَائرةِ "المُنْكَرِ" وما يَرْتَبِطُ بها مِنْ شُرُورٍ ومَسَاوِئَ وهَلاَكٍ للنَّوْعِ وضَيَاعٍ للْمُقَدَّرَاتِ التي أنعم بها اللهُ عز وجل على الإنسان لتكونَ دافِعَ عَطَاءٍ وخيرٍ ونماءٍ عِوَضَ أَنْ تكونَ عَامِلَ دَمَارٍ وَشَرٍّ. يقول الله تعالى في سورة آل عمران الآية ١٠٤: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. كما يُمْكِنُ رَفْعُ ذلك الاختلافِ في

الدَّائِرَةِ الْمُتَوَافِقَةِ بِمَآلِ التَّآلُفِ والاعتصامِ بِحَبْلِ اللهِ، وسَبِيلُ هَذِهِ الْـمَآلاتِ سَبِيلٌ يَنْضَبِطُ لِقَوَاعِد وشروطٍ وَوَاجِبَاتٍ.

أيها السادة

لقد عَكَسَتْ جُهُودُ المسلمينَ في صَوْنِ "التَّنَوُّعِ" ورِعَايتِهِ في نصوصٍ عديدة في أُفُقِ التَّصَوُّرِ أعلاهُ. لقد نُظِرَ إلى التَّنَوُّعِ أَنَّهُ ضرورةٌ اقتضتها حكمةُ الله تعالى. ومن أروع ما تحقق مِنْهُ في هذا المجالِ ، دستورُ المدينةِ على عهد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

أقر دستور المدينة نظامصا للتَّكَافُلِ الدَّاخِلِيِّ بها، وَأَوْجَبَ على كُلِّ مُكَوِّنٍ "أَنْ لا يَتْرُكَ مُفْرَحًا كثير الدَّيْنِ بين عناصره إلا ويُعْطى بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ". كما حث نفسُ الدستورِ الطَّوَائِفَ الْمُكَوِّنَة للأمة دَفْعَ الظُّلْمِ ومُحَارَبَةَ طُغْيَانِ البعض على البعض، ومُحاربةَ الفَسَادِ، والتَّسَاوي أمام العدالة. وَضَمَنَ حُرِّيَةَ الْـمُخَالِفِينَ في الدين في مجتمع الأمة، وكفل لهذه الفئة حق التدين.

"يَهُودُ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إِلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي النّجّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ

مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ؛ وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَإِنّ جَفْنَةَ بَطْنٌ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ وَإِنّ لِبَنِي الشّطِيبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنّ الْبِرّ دُونَ الْإِثْمِ وَإِنّ مَوَالِيَ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ وَإِنّ بِطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسِهِمْ وَإِنّهُ لَا يَخْرَجُ مِنْهُمْ أَحَدٌإلّا بِإِذْنِ مُحَمّدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَإِنّهُ لَا يُنْحَجَزُ عَلَى ثَأْرِ جُرْحٌ وَإِنّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إلّا مِنْ ظَلَمَ وَإِنّ اللهّ عَلَى أَبَرّ هَذَا؛ وَإِنّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ وَإِنّ بَيْنَهُمْ النّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَإِنّ بَيْنَهُمْ النّصْحَ وَالنّصِيحَةَ وَالْبِرّ دُونَ الْإِثْمِ وَإِنّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ وَإِنّ النّصْرَ لِلْمَظْلُومِ وَإِنّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ وَإِنّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَإِنّ الْجَارَ كَالنّفْسِ غَيْرَ مُضَارّ وَلَا آثِمٌ وَإِنّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إلّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا، وَإِنّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إلَى اللهّ عَزّ وَجَلّ وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَإِنّ اللهّ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ وَإِنّهُ لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا. وَإِنّ بَيْنَهُمْ النّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، وَإِذَا دُعُوا إلَى صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ وَإِنّهُمْ إذَا دُعُوا إلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إلّا مَنْ حَارَبَ

فِي الدّينِ عَلَى كُلّ أُنَاسٍ حِصّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمْ الّذِي قِبَلَهُمْ وَإِنّ يَهُودَ الْأَوْسِ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَى مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ. (انظر نص الوثيقة في السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وضبط وشرح ووضع فهارس، مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي، المجلد الأول ص ٥٠١ـ٥٠٤)

ووفق نفس المنظور نظر المسلمون في عِزِّ حضارتهم إلى الدوائر الثقافية والدينية واللغوية التي تَسَاكَنَتْ في الدولةِ الإسلاميةِ:

يقول شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي في كتابه أنوار البروق في أنواع الفروق (طبعة دار الكتب، ج٣ ص ١٥) شَارِحًا معنى الْـمَبَرَّةَ الواجبَةَ على المسلمينَ للْأَقْوَامِ التي تُسَاكِنُهُمْ ولم تَحْمِلْ سِلاَحًا في وجههم لمقاتَلَتِهِمْ ولم تعمل على إخراج المسلمين من ديارهم:

" وأما ما أمَرَ بِهِ من بِرِّهِمْ ومن غير مودة باطنية فالرِّفْقُ بضعيفهم وسَدُّ خُلَّةِ فقيرهم وإطعامُ جائعهم وإكساءُ عاريهم ولَيْنُ القَوْلِ لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمالُ إذايَتِهِمْ في الجِوَارِ مع القُدْرَةِ على إزالته لُطْفًا مِنَّا بِهِمْ لا خَوْفًا وتعظيما، والدعاءُ لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم وصَوْنُ أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم وأن يُعَانُوا على دفع الظُّلْمِ عنهم وإيصالُهُم لجميع حُقوقِهم "

أيها السادة

إذا كان الإنسان في العصور الماضية قد ارتبط بِنِطَاقَاتٍ جغرافية محددة، عادة ما كانت تُمَثِّلُ المجالَ الذي تتفاعل فيه ثقافتُه وتجري فيه لغتُه ويُمارِس فيه مُعْتَقَدَهُ، فإنه اليومَ صارَ كائنًا عَابِرًا للقاراتِ، يُضِيفُ إلى انتمائِهِ إلى رُقْعَتِهِ الجغرافيةِ ، انتماءً مُوَسَّعًا يجعلُه يَتَقَاسَمُ كلَّ الكوكَبِ، وينفتح على كل الثقافاتِ. وقَدْ صَارَ في المجال الجغرافي لكل منظومةٍ حضاريةٍ وجودٌ لِدَوَائِرَ من المنظومات الأخرى. كل المجالاتِ الجغرافيةِ بَاتَتْ تَحْتَضِنُ وَسِيطًا مُسْتَضَافًا، وَأَصْبَحَ مِنَ المسْتَبْعَدِ للمستضافينَ بفِعْلِ التقدمِ التقنيِّ في التواصُلِ وتَطَوُّرِ المواصلاتِ، أن يَنْدَمِجُوا في الْـمُسْتَضِيفِينَ إلى حَدِّ الِانْتِفَاءِ.

قد يَجْنَحُ الوُسَطَاءُ المستضافُونَ إلى البحث عن اعترافٍ بهم في المجالاتِ الحضاريةِ المستضِيفَةِ لَهُمْ؛ وقد يُعَبِّرُونَ عَنْ حَقِّهِمْ في أن يعيشوا ثقافتَهُمْ ويُصَرِّحُوا بهويتهمُ الدينيةَ بِصُوَرٍ مُتعددةٍ، تَبْرُزُ في صُنوفِ الطعامِ وَشَكْلِ اللِّبَاسِ، وَتَنْجَلِي في الكتابةِ والفِعْلِ في المجتمع المستضيفِ. لكنَّ مُجَابَهَتَهُمْ بِالْـمَنْعِ، وَمُصَادَرَةِ حَقِّهِمْ في إِبْرِازِ خُصوصيَاتِهم، تُؤَجِّجُ لَدَيْهِمْ إحساسًا بِالْغَبْنِ يَنْقَلِبُونَ إِثْرَهُ إلى صُوَرٍ أخرى في التعبيرِ والاحتجاجِ.

علينا أيها السادة أنْ نَعِيَ أن الأقلياتِ لم تَعُدْ أقلياتٌ معزولةٌ، إذْ أنَّهَا على ارتباطٍ وثيقٍ بجذورها الثقافيةِ والدينيةِ واللغويةِ، وقَدْ وَفَّرَ لَهَا تَقَدُّمُ العلومِ التقنيةِ فُرْصَةَ المحافظةِ على لغتها الأصليةِ مَهْمَا تَعَاقَبَتِ الأجيالُ، كَمَا أَنَّهَا صَارت وَسِيطًا حضاريًا بالضرورةِ بين منظومتِها الفكريةِ والحضاريةِ والمنظومة المستضيفةِ لَهَا. وعليه فإن مَنْطِقًا جديدًا قد فَرَضَ نَفْسَهُ، فلا الإنجليزِيُّ المقيمُ بقطر قابلٌ لأن

يَتَقَطَّرَ تَمَامَ التقطر، ولا القطري المقيم بإنجلترا قابل لأن يَتَنَجْلَزَ تَنَجْلُزًا تَامًّا. إنهما يظلانِ مُرتبطَيْنِ بجذورهما وآليات تفكيرهما ورؤية جَمَاعَتِهما لِلْعَالَمِ.

إنَّ الْـمُتَعَيَّنَ اليومَ، دعمُ هذا الوسيطِ الحضاري ليكتسب الآليات التي تُبيحُ له التعبيرَ عن جماعته في المنظومة الحاضنة المستضيفة، ويعملَ بجدٍّ على رفعِ التَّوَتُّرَاتِ التي تراكمتْ في الحدود الجغرافية الضيقة.

وكما يتعين عليه التقريب بين بلده الأصلي والبلَدَ المستضيفَ له، عليه أن يُسْهِمَ في إشاعة الخيرِ وإذاعة القِيَمِ الموجَبَةِ الكفيلةِ بتحقيق العدالة ومحاربة الفقر وإرساء الأمن والمحافظة على الأنواع وخدمة الإنسانية.

أيها السادة

لقد شهد العالم العربي ربيعا، تواصل فيه الشباب العربي في كل أرجاء كوكب الأرض، داعيا إلى وجوب الإصلاح، ومحاربة الفساد، وجميع أشكال الاستبداد. وقد أفرز الربيع جَوًّا جديدا اِنْتَفَى مَعَهُ ركودٌ اِمْتَدَّ لِعَهْدٍ بَعِيدٍ.

إن الشعوبَ العربيةَ الإسلاميةَ تعيش اليومَ حَرَاكًا تُؤَطِّرُهُ رغبةٌ في تجاوز الأخطاءِ، ورغبةٌ في المراجعةِ. إنَّ مطالب تلك الشعوب مطالب عادلَةٌ؛ إنه ينشد عدالةً اجتماعيةً وفُرْصَةً للإصلاحِ. وإنه ينتظر من الدوائرِ الحضاريةِ الحليفةِ أن تَدْعَمَهُ وتَسْنَدَهُ في مَسَارِهِ لِيُحَقِّقَ هَدَفَهُ.

أيها السادة

الدعوة ممتدةٌ لصُرُوحِ العلم في العالم بأن تعمل على تفعيل الحدود المشتركة، ومراجعة الأخطاء التي استرسلت في كل منظومة حضارية عن الأخرى خلال

التاريخ . إن المسؤولية في هذا الأمر مشتركة، والدور المستشرف في المراجعة مشترك أيضا. ولعل ما عبر عنه أمير ويلْز ولي عهد بريطانيا في مقاليه عن الإسلام والغرب (سنة ١٩٩٣) والإسلام والبيئة (سنة ٢٠١٠) ما يمنح أفقا جِدِّيًّا في التعارف بين منظومتنا الإسلامية والغرب

من جهتنا في العالم الإسلامي فإننا نعمل وفق لافتة عريضة مكتوب عليها:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣)،

أشكر مرة ثانية الإخوة الذين رَتَّبُوا هذا اللقاء ، وإننا في دولة قطر نَعِدُكم تحت القيادة الرشيدة لحضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر على الْـمُضِيِّ قُدُمًا في تأكيد ضرورة الحوار بين العالم الإسلامي وبين الغرب عموما وباقي العالم. وأَمَلُنَا أن يكون حوارنا حوارا متكافئا نستشرف به جميعا مستقبلاً جميلاً للإنسانيةِ جمعاءَ، ونَفْتَحُ فيه أُفُقًا جديدا في المحافظة على كوكبنا الرائع الذي جعل فيه الله تعالى من الآيات ما يدعو إلى التدبر، وما يبعث على التفكر.

والسلام عليكم ورحمة الله